الأدَبُ يُوَجِّهُ وَلا يُوَجَّهُ

ليس الكاتب أو الشاعر الخليق بهذا الوصف إنسانًا كسائر الناس تبين له الوجهة وتعين له الغاية، وإنما هو إنسان أعلى، ميّزهُ الله بقوة الفكر وحدة العاطفة وسمو الخيال؛ ليشارك في عملية التقدم العام لركب الخليقة، يدفعه بحوافزه العظمى إلى الأمام، ويرفعه بمثُله العليا إلى فوق.

فهو من أصحاب الرسالات الفكرية الذين يشعرون قبل غيرهم بالنقص لقوة الحس فيهم، ويفكرون أكثر من غيرهم في الكمال لصفاء النفس منهم، ويتخيلون دون غيرهم ما وراء الواقع لخصوبة لخيال لديهم. وحكمهم في تبليغ رسالات الله عن طريق الإلهام، وحكم الأنبياء الذين بلغوا رسالاته عن طريق الوحي؛ إلا أن طبيعة الرسالة الأدبية تختلف عن طبيعة الرسالة الدينية: رسالة الأدب تغذية الشعور بالجميل والجليل، ورسالة الدين تقوية الضمير بالخير والحق.

والأدباء كالأنبياء يصطفيهم الله من خلقه، ويصنعهم على عينه، ويؤتيهم العلم من لدنه .. فقول رجال الدين: " ما اتخذ الله من نبي جاهل، ولو اتخذه لعلمه " يصدق على الأديب. فهوميروس ودانتي وشكسبير وموليير وبرناردشو في الغرب، ولقمان وكونفشيوس وزهير وعلي وابن المقفع والمتنبي في الشرق، كانوا في العلم اللدني أشبه بموسى وعيسى ومحمد في الرسل، لم يتلقوا الآداب عن أستاذ، ولم يتخرجوا في العلوم من جامعة، وإنما أفاض الله عليهم من علمه، وكاشفهم بالمحجوب من غيبه، فانبثقت في أفئدتهم أشعة الهداية، وتفجرت على ألسنتهم ينابيع الحكمة، فأتوا بما لم يأت به فيلسوف ولا عالم!.

فالأديب الموهوب زعيم بالفطرة، توجهه نفسه الكبيرة بطبيعتها إلى أن يحرك في شعبه الشعور بالنقص، ويوقظ في وعيه الطموح إلى الكمال، بتلك الصرخات التي يرسلها فيه، مؤلفة في كتب، أو منظومة في قصائد، أو مصورة في مقالات، أو محلَّلة في قصص، أو ممثلة على مسرح.

يفعل ذلك من تلقاء نفسه لا عن تلقين ملقن ولا توجيه موجه. وإلا فمن الذي وجه ديدرو ومونتسكيو وروسو إلى التمهيد للثورة الفرنسية؟ ومن الذي وجه تولستوي وجوركي وتورجنيف إلى التمهيد للثورة الروسية؟ ومن الذي وجه الأفغاني ومحمد عبده والبارودي ونديم إلى التمهيد للثورة العرابية؟ فقول السادة القائلين بأن الأدب يجب أن يوجَّه إلى الحياة أو إلى الشعب، وأن يقصد به بعد الجلاء إلى اليمين أو إلى اليسار، قول من يعتقدون أن الأدب آلة لا نفس، وصنعة لا طبع، وعملية لا إلهام، وفي الاعتقاد نزول الأدب إلى منزلة الوسائل المادية للعيش، يوجَّه إلى القصد الذي تريده الجماعة، كما توجه العمارة أو النجارة إلى الطراز الذي تقتضيه الحضارة! وليس هذا من عمل الأدب أو الفن، وإنما هو من عمل العلم أو التعليم. العلم وحده هو الذي يوجَّه إلى تحقيق تلك الوسائل وتطبيقها على الوجه الملائم لحاجة الشعب ورفاهيته.

أما الأدب فهو السياسة العليا للأمة كما سموه بحق، زعامته مستقلة، ورسالته متبعة، يوجِّه ولا يوجَّه، ويقود ولا يُقاد. وإذا جاز للجيش أن يوجه القائد، جاز للشعب أن يوجه الأديب.

ومن المحال أن يجوز ذلك؛ لأن الشعب ينفعل بالأدب ولا يفعله، ويتأثر به ولا يؤثر فيه. ولا تعترض عليَّ بالمأثورات الشعبية " الفولكلور " باعتبارك إياها إنتاجًا للشعب، فإن أولئك الأدباء المجهولين الذين أرسلوا الأمثال والحكم، ونظموا المواويل والأغاني، وألفوا الأساطير والنوادر، وصاغوا الضوابط الزراعية والمناخية من نحو قولهم: " قمح بابه، غلب النهاية " و " في برمهات، اسرح الغيط وهات " و " في توت، عيان الحمير يموت " أولئك الأدباء الموهوبون قوم تميزوا على نظرائهم من العامة بما آتاهم الله من صحة التفكير وقوة التعبير وصدق النظر، فارتفعوا في طبقتهم وبيئتهم إلى مقام القادة، يأخذ الناس بتجاربهم في الأمور، وينزلون على أحكامهم في القضايا. ولا فرق بينهم وبين الأدباء المعلومين إلا أنهم جهلوا لغة الخاصة فاستعملوا لغة العامة، فغض ذلك منهم، وصرف عين التاريخ عنهم، ولكن البلاغة ليست مقصورة على قوم دون قوم، ولا خاصة بلغة دون لغة.

وقصارى ما أقوله للسادة الذين يريدون أن يخلقوا الأديب بالأمر، وينشئوه على القواعد، ويسددوه بالنقد، أن الأديب من صُنع الله ومن إعداد الطبيعة، فانتظروا حتى يرسله فإذا أرسله فاتبعوه ودعوه يعمل على سجيته، لا ترسموا لرسالته الحدود، ولا تقيموا لقريحته الحواجز، ولا تحبسوه في القفص الذي حبستم فيه البلبل، ولا تعوقوه بالسد الذي عوقتم به النهر، دعوه يرسل التغريد في كل أفق، ويسلسل الخرير في كل اتجاه.

ولا يشتبهن عليكم أمره فإن له علامات تميزه وتدل عليه:

إنه إنسان متمرد متجدد منطلق، لا يرجه القهقري، ولا يطيق الركود، ولا يقبل الإسفاف .. لا يهتم بقواعد البلاغة لأن قوانينها مقتبسة من فنه، ولا يعبأ بمذاهب النقد لأن مقاييسها مقدَّرة على كلامه. يبصر في الظلام أبعد مما يبصر في النور، ويشعر في الشدة أقوى مما يشعر في الرخاء، وينتج في القيد أبلغ مما ينتج في السراح! لأن الرسول إنما يرسله الله حين يطغى الظلم ويبعد الضلال ويبغى المنكر، حتى إذا بلغت الرسالة واستكان الجور واستبان الطريق، فتر الوحي وهدأ الجهاد وقرت النفس وعادت الأنوار إلى مشرقها الأول.

أما إن كان غفلاً من هذه الدلائل، خلوا من تلك الصفات، فهو من طبقة المتشاعرين والمتكاتبين الذين يمسكون الأقلام الحديد، كما يمسك خطباء المساجد السيوف الخشب !.

أنتم وشأنكم معه ! قيدوه بما شئتم من القيود، ووجهوه بما استطعتم إلى خارج الحدود !.